نشأة اوربا المدنية

الركن الرابع . افتتاح القسطنطينية

ان مدبر الاكوان الذي بيدهِ النصر يؤتيهِ من يشاء وهو على كل شيء قدير قيَّض فتح القسطنطينية للسلطان محمد الفاتح سنة ١٤٥٣ . وهذه الحادثة هي النقطة التاريخية الكبرى الفارقة بين التاريخ المتوسط وبين التاريخ الحديث . وفي تلك النقطة بلغ الاسلام اوج مجدهِ ونال الارب من عرش الروم فقلبهُ ولكن بعد ان تهدَّد هرقل باكثر من تسعمئة سنة كما نالت النصرانية اربها سابقًا من العرش الروماني فقلبتهُ بلا حَرب ولا قتال . على ان هذا الفوز تأخر عن وقتهِ ولم يعد في الامكان ان يحسب مقدِّمة لغزو اوربَّا كما يظهر من تواريخ القرون الثلاثة التي تلت افتتاح القسطنطينية . وعوضًا عن ان يلاشي الاسلامُ الديانة المسيحية من اوربَّا كما لاشاها من افريقية او يضعفها الى حد الموت كما في اسيا فقد خدمها خدمةً جليلة حتى كان افتتاح القسطنطينية من اعظم الفوائد لاوربَّا والنصرانية

فقد كان لذلك الفتح دوي هائل في عواصم اوربَّا طنَّت بهِ اسماع الامراء والملوك فاستنهض همتهم وجمع اشتات قوتهم لصد من حسبتهُ اوربَّا العدو الالد لها

وخدم ذلك الفتح اوربَّا من وجه آخر اذ امدَّها بصفوف المتأدِّبين ارباب البحث والطلب الذين شق عليهم ان يبقوا في بلادهم بعد خضوعها للغريب عنهم جنسًا ومذهبًا فضربوا في الديار الغربيَّة حاملين معهم الاسفار والرقوق المحتوية مباحث ذلك العصر وآثار العصور الخوالي وانبثُّوا في اقطار اوربا وبثوا فيها تلك الافكار انبثاث الاشعة النورانيَّة في الواح الزجاج فتشعشعت منها انوار المحبة والبهاء . وبذلك امتاز فتح القسطنطينيَّة عن الحملات الصليبيَّة لان تلك حملت لاوربا بعض الافكار ولكن هذا حمل اليها رجال الافكار انفسهم . وكان تقاطر تلك الجماهير الى قلب اوربا محرِّكًا لاحساسات الاخاء وساترًا آثار الاحقاد والضغائن بين اللاتين واليونان . فزاد ذلك الحركة العقليَّة قوَّة وانتشارًا . وصارت اوربا غنية بازكان النشأة وادركت ما كانت تحلم بهِ اخواتها من قارَّات الدنيا في غابر الازمان

الركن الخامس . اختراع الطباعة

الطباعة يد المدنية والمعارف بها تنتشر العلوم والفنون بسرعة وسهولة لا يمكنان بدونها . فكل بلاد خلت من المطابع والمطبوعات يتعذَّر عليها السير الحثيث في مضمار الادب . ويتضح ذلك من النظر في سياحة المعارف قبل استنباط آلة الطبع وبعدهُ . فكم كان يعسر على

الباحثين تحصيل العلوم قبل وجود المطابع اذ كانوا يلتزمون ان يجوبوا الآفاق للاطلاع على مستودعات الافكار المذخورة في المكاتب الشهيرة كمكتبة الاسكندرية ومكتبة الفاتيكان وغيرها . كان الباحثون يقصدونها من اقاصي اوربا كما يقصد الاثريون في ايامنا خرائب بابل وطيبة وطروادة من اوربا واميركا لينتشوا عن حجرٍ مكتوب او عمود منقوش او قطعة قرميد رسمت عليها رسوم تضيف الى التاريخ القديم بعض الحقائق المجهولة

وكم كانت النساخة صعبة وما اكثر النفقات التي تستلزمها. فان مؤلفات رجل واحد شهير قد تستغرق حياةً كاملة للحصول على نسخة كاملة منها فكم يلزم من التعب والوقت والنفقات والاعتناء للحصول على نسخ عديدة من مؤلفات كثيرين وهذا آل الى انحصار المعارف في قليلين من اصحاب المواهب وعجز الكثيرون عن ادراكها

وسنة ١٤٣٨ توفق يوحنا غوتنبرغ الى اختراع آلة الطبع فظهرت لاهل ذلك العصر من اغرب الغرائب حتى نسبوها لاعمال الجان لما رأوهُ في النسخ العديدة من الاتفاق في عدد الصفحات والسطور وترتيبها والوان حبرها فامسكوا حاملها ولم يتركوهُ حتى اطلعهم على سرها وبيّن لهم انهُ لا مدخل للجان والشياطين فيها

وكان اوّل المطبوعات نسخة من الانجيل طبعت في مدينة ليبسك من اعمال المانيا فبادر الناس الى مطالعتها ولم يمضِ وقت طويل حتى ملأت المطبوعات الاقطار الادبية وانتشرت بواسطتها الافكار الشريفة باكثر سرعة وسهولة . وازدانت البلدان الاوربية بما لا يحصى من انواع الكتب والجرائد المفيدة التي يحمل منها يوميًّا من مملكة الى مملكة قناطير مقنطرة واستطاع الانسان ان يشارك العالم الواسع بافكارهِ وهو جالس في بيتهِ ويسبح في كل الاقطار وفي كل عصور التاريخ ويقف على كل المبادىء والآراء التي في العالم

ووفت الطباعة بما يحتاج اليهِ العالم لاجل النشأة الجديدة لان الافكار الشريفة لا يحتاج الاّ الانتشار لكي تسود فالطباعة لسيف المدنية الصقيل الذي بهِ بترت وتبين الجهالات وقيود الخشونة التي كبّلت ايدي العمران عن ان يأتي بما فيهِ سعادة النوع الانساني . فانحلّت الوثق التي كانت تربط ايدي مشاهير العاملين في الدنيا وتمكّنوا من الخدم الجليلة التي كان المجتمع البشري في شديد الافتقار اليها . وكانت اميركا محجوبةً يومئذٍ بحجب الخفاء عن اعين العالم المتمدّن واسيًا ترسف في قيود الاستبداد وافريقية مكتنفة بغياهب الظلمات والمظالم التي تحول بينها وبين الحياة الادبية فانحصر تأثير المطابع في اوربا وفي القسم الغربي منها على الخصوص الذي هو مهد النشأة الحديثة

الركن السادس . الاكتشافات البحرية

دخلت بحرية اوربا وقت الحروب الصليبية في طور جديد لم يعهده العالم من قبل . فان مراكب الفينيقيين القدماء والسفن الرومانية التي كانت سيدة البحار قلَّما جاوزت شطوط البحر المتوسط وشرقي الاتلانتيك وطرف البحر الاحمر . امَّا في القرن الرابع عشر فسارت سفن اوربا من اقاصي الشمال واخذت تشق عباب الاوقيانوس الهندي والباسفيك حتى بلغت الاقاصي المجهولة وكانت الاولية في هذا المضمار للبرتوغاليين والهولنديين وتلاهم الاسبان والفرنسيس فالانكليز فالطليان . وكانت بداءة الحركات البحرية التجوال حول الشطوط الافريقية فاكتشفوا راس الرجاء الصالح ومنهُ انفتح الطريق البحري الى هندستان فصارت سفن اوربا تسير الى الاقسام الشرقية من قارَّة اسيا دائرة حول افريقية

وبعد ذلك عنَّ لكولمبوس الايطالي ان يقصد الهند من طريق بحري جديد من غير ان يدور حول افريقية وايقن انهُ اذا سار غربًا يصل الهند . ولمَّا عرض رأيهُ على غيره صادف ما يصادفهُ كل مكتشف من الصعوبات والموانع حتى اتاح لهُ الحظ التوصُّل الى ملكة اسبانيا فمدَّت اليهِ يد المساعدة وسار قاصدًا بلاد الهند فساقتهُ يد العناية الى جزائر الانتيل وكان ذلك في سنة ١٤٩٢ فسميت جزائر الهند حسبان انها من هندستان . ثم لما تبين انها ليست كذلك سميت جزائر الهند الغربية تمييزًا لها عن هندستان التي تدعى الهند الشرقية . واخذت المراكب تتقاطر من اوربا الى تلك الاقطار وذلك بعد رجوع كولمبوس واذاعتهِ اخبار الاكتشاف . وتوالت الاكتشافات حتى كشفت اميركا الشمالية واميركا الجنوبية وجزائرها . وكان ذلك من اتنع العوامل في احداث النهضة الاوربية كما يتضح ممَّا يأتي

ولما فيضت اوربا على ازمة امريكا ساقت اليها مراكبها مشحونة بالرجال والجنود لامتلاك الكنوز واحراز المعادن الذهبية والفضية المذخورة فيها . فدخلوا براريها الواسعة ورقوا جبالها العالية وغاروا في انهارها العظيمة وجنوا اثمارها وغلالها واستخرجوا معادنها الثمينة . وتقاطرت الاقوام الاوربية اليها جماعات للاستعمار والمتاجرة والتمتع بحرّية الافكار

ومن المحقق ان اكتشاف امركا آل الى زيادة الرغبة في الاسفار البحرية فاكتشف كثير من الجزائر وكشفت بقيَّة اقسام اسيا اعني الصين واليابان وكوريا واوستراليا وغينيا الجديدة وجزائر الباسفيك . فكمل رسم خريطة الارض واتسعت دائرة التجارة وزادت حركة الصناعة وكثرت المعدات البحرية بفنونها من حربية وهندسية وميكانيكيَّة لاجل حماية المتاجر والمستعمرات فتمكنت اوربا من احراز الثروة الطائلة والشهرة الذائعة وبسطت حمايتها على اكثر اقسام المعمور

واذا شئت ان تعرف نسبة الامم الاوربية الى النشأة الجديدة فيمكنك ان تجعل نسبة بين بحريتها ومقامها لان البحرية هي سر الرفعة في هذه الاعصر كما قال امبراطور المانيا الحالي "ان مستقبل الامبراطورية الالمانية يتوقف على بحريتها". وقد سبقهُ الى ادراك هذه الحقيقة الدولية بطرس الاكبر قيصر الروس من مدة مئتي سنة . فمضى من بلادهِ الى هولندا وانكلترا حيث اتقن صناعة بناء السفن وارسل بعثةً من شبان بلادهِ لنقل ذلك السر الذي يتوقف عليهِ اساس الفوز العظيم في سيادة الامَّة . ولو كانت لروسيا قوة بريطانيا البحرية لما سبقتها هذه الى نشر رايتها فوق اربعمئة مليون في اقسام مختلفة في الكرة الارضية

وخلاصة الكلام ان اكتشاف اميركا حرَّك اوربَّا وفتح لها بابًا واسعًا للعمل في اقليم حسن التربة صالح لمغروسات الفكر يثمر اثمارًا وافرة للعاملين فيهِ وذلك رفع اوربَّا رفعةً لم تكنْ تحلم بها الامم التي عاشت في الاعصر السالفة

الركن السابع . الاصلاح الديني

ان الاختلاف في هذا الموضوع كاهميتهِ في التاريخ البشري . فانك بينما ترى البعض يحسبونهُ اعظم بركات العالم الادبي واقوى العوامل في احداث النشأة الاوربية الحديثة ترى غيرهم يعدهُ من الهنات الهينات التي لا علاقة لها بحوادث العمران المعاصرة والتالية . على ان منشأ الاختلاف المذكور انما هو التعصُّب المذهبي وليس ذلك من اغراضنا هنا ولا ريب في ان الجانب الاكبر من الكتَّاب والمحققين من الراي الاوَّل

على ان النظر الفلسفي في ماجريات الامور لا يمنعنا من انتقاد الاصلاح الديني ووزنهِ بميزان العقل لاكتشاف نتائجهِ الادبية في ساحة العمران . وقد يقال ان الاصلاح المذكور انشأ مذهب البروتستانت فقط وليس الامر كذلك لان حركتهُ لم تكن دينية محضة بل كانت نتيجة عوامل عديدة سياسية وادبية ودينية . ولو كانت مجرَّد انتباه ديني للزم ان تتأخر نتائجهُ ونقتصر على التأثير في الافراد سنة فسنة . ولكننا نراها قلبت الممالك والامم صفقة واحدة وليس ذلك من التأثيرات الدينية المحضة

على اني بقولي هذا لا انكر ما لتلك الحادثة من الصفة الدينية الجليلة ولولا هذه الصفة ما نهض البلاط الفاتيكاني لمعارضتها والَّف الاحزاب والجمعيات والمكتب واقام الواعظين والمجادلين لمعارضتها ومناصبتها في كل الاقاليم

فالحادثة اذًا مركَّبة ونتائجها كذلك . واذا نظرنا اليها من الجهة الدينية لا نرى انها علَّة لتلك النهضة بل ثمرة لها ونسبتها الى النهضة الدينية كنسبة اكتشاف اميركا الى الاسفار

البحرية . فان اكتشاف اميركا لم يكن علّة الاسفار البحرية بل نتيجتها ولكنهُ مع ذلك فتح لتلك الاسفار مجالاً جديداً حتى انها لم تكن قبلهُ تحسب ذات اهمية بالنسبة الى ما صارت اليهِ

وعليَّ الآن ان ابيّن علاقة ذلك الحادث العظيم الذي هو الاصلاح الديني بالنشأة الاوربية فاقول

ان الحياة الادبية مقرونة بالتحقيق على الدوام فهي تستلزم البحث والتنقيب وتطلب حرية الفكر والضمير . واذا كنا نحسب حرية الفكر البشري من ذرائع التقدم المدني فيحق لنا اعتبار الاصلاح اعتباراً فائقاً من هذا القبيل لانهُ اذا لم يكن قد خدم اوربا بشيء على الاطلاق فقد قام بهذه الخدمة على الاقل وهي تحرير العقل البشري . وهذا كل ما يحتاج اليهِ العقل للاتيان بغرائب اعمالهِ

ولقد كان من رأي العلامة الفيلسوف كيزو الفرنسوي الشهير ان الاصلاح بمثابة ثورة العقل البشري ضد العبوديَّة الفكريَّة وان الاصلاح البروتستانتي كان مظهراً من مظاهر تلك الثورة . ويتضح ذلك من ان مبدأ الاصلاح الديني يحتوي جوهرياً على هذه القاعدة الاساسية وهي انهُ يحق لكل انسان ان يحكم في صحة ما يعتقدهُ

فمبدأ حرية الفكر هذا الذي ناضل عنهُ الاصلاح هو مبدأ الانسانية والاجتماع البشري والحياة المدنية

ويظهر تأثير الاصلاح الديني في العمران من وجهين

الاوَّل . من المقابلة بين احوال اوربا قبل الاصلاح وبعدهُ فانك تجد الفرق العظيم بين الحالين في الاديانات والماديَّات على انواعها

والثاني . من المقابلة بين الممالك التي قبلت الاصلاح والممالك التي رفضتهُ فانك تجد الفرق العظيم بين النمسا والمانيا وبين اسبانيا وبريطانيا وبين الولايات المتحدة واية جمهورية كانت في اميركا

فحرية الفكر البشري التي يتفخر بها التاريخ الحديث هي اولى ثمرات الاصلاح

وترقية الحياة الادبية والاجتماعية هي ثانية تلك الثمرات

وانتباه الامم جمعاء للاصلاح الديني هو ثالث تلك الثمرات

والقيام لنشر المبادىء الادبية في دائرة واسعة يصح ان يحسب في عداد تلك الثمرات ايضاً وكثرة التآليف والجمعيات والمدارس والجرائد من الامور التي تقدمت في عصر الاصلاح

خلاصة ما تقدم

الركن الاول . المدارس . امدّ اوربا برجال الحياة العقلية فخدموها بالتآليف والاكتشافات

الركن الثاني . الفروسية . امدّها برجال الشهامة وروح الاستقلال الشخصي فخدموها بانفسهم

الركن الثالث الحروب الصليبية . نقلت الى اوربا مفاخر الشرق وصدّت عنها ويلاته

الركن الرابع . فتح القسطنطينية . جمع احساسات الاوربيين وزاد عدد الافاضل المهاجرين اليها فخدمها بترقية العلوم

الركن الخامس . الطباعة اوقدت سراج الآداب في اوربا وسهلت انتشار المعارف فيها فخدمتها بنمو المعارف

الركن السادس . الاكتشافات البحرية . زادت حركة الصناعة والتجارة . ومنحت حرية الافكار ملجأً . فخدمتها بالمال والعلم

الركن السابع . الاصلاح الديني . امدّ اوربا برجال الافكار الحرة والنظامات الجديدة وايقظ روح البحث والاصلاح في كل مكان وهذه الاركان السبعة متناسبة كما يأتي

الاركان الثلاثة الاولى متصلة بعضها ببعض لان المدارس ايقظت روح الادراك في الناس والفروسية روح الشهامة وقد اجتمع الاثنان في الحملات الصليبية

والاركان الثلاثة الاخيرة متصلة ايضاً لان الاصلاح منح اوربا حرية الفكر والطباعة ساعدت في سرعة نشر هذه الحرية واميركا كانت ملجأ المهاجرين بسببها

اما فتح القسطنطينية فقد كان الحلقة المتوسطة بين هذه وبين تلك وهو الفارق بين التاريخ المتوسط والحديث وبهِ دخلت اوربا في طور جديد واستعد العالم لمستقبل عظيم

(خادم للانسانية)

نظام الملك والمدرسة النظامية

يرى الناظر في ماضي الشرق العربي ان قد قام فيهِ رجال عظام اتوا بجلائل الاعمال وامتازوا بشرائف الخصال فاشار التاريخ الى بعضهم واغفل ذكر الآخرين . وممن استحق ان يذكر بالحمدة على المدى نظام الملك احد وزراء الدولة السلجوقية التركية المتوفّى سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ مسيحية) وهو من افراد رجال الشرق يندر ان ينتج لدولة مثلهُ في قرن او قرنين . ويؤخذ مما قالهُ العماد الكاتب الاصفهاني في تاريخ دولة آل سلجوق ان علامة نظام الملك كانت "الحمد لله على نعمهِ" وانهُ كان مؤيّدًا موفقًا والدهماء ساكنة في ايامهِ واهل الدين والعلم والفضائل واثقون في انعامهِ . قال وفي ايامهِ نشأ للناس اولاد نجباء وتوفّر على تهذيب الابناء